

الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية . تأليف: شيخ الإسلام : الشهيد حميد بن أحمد بن محمد المحلي .
تحقيق: د. المرتضى بن زيد المَظْطوري الحَسَبي . الطبعة الثانية - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م - مكتبة مركز بدر للطباعة والنشر والتوزيع .
www.almahatwary.org

(١) الإمام القاسم بن إبراهيم عليهما السلام

هو: أبو محمد القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام. فرع دوحة بسقت في أرض الفخار، ونور شجرة زيتونة متوقدة لذوي الأبصار. ما في آبائه عليهم السلام إلا من فاق وراق، وانتشر فضله في الآفاق.

وقد تقدم ذكر آبائه عليهم السلام وهم عبير المشتاق، وصفوة أهل الأعراق.
وأمه عليها السلام: هند ابنة عبد الملك بن سهل بن مسلم بن عبد الرحمن بن عمرو ابن سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبدود بن نضر بن مالك بن حسيل بن عامر ابن لؤي.

صفته عليه السلام: كان عليه السلام تام الخلق، أبيض اللون، كث اللحية، وكانت لحيته كالقطننة الشديدة البياض، حكاها السيد أبو طالب عليه السلام.

ذكر طرف من مناقبه وأحواله عليه السلام: (٢)

كان عليه السلام من أقمار العترة الرضية، ويواقيتها المشرقة المضية، انتهت إليه الرئاسة في عصره، وتميز بالفضل على أبناء دهره. وقد أخبرنا الإمام المنصور بالله أمير المؤمنين أبو محمد عبد الله بن حمزة بن سليمان سلام الله عليه وعلى آبائه الأكرمين قال: روى القاضي العالم ابن عمار قال: أخبرني فقيه آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) الإفادة ٨٨، أعيان الشيعة ٤٣٥/٨ ، وطبقات الزيدية ((خ)) وعمدة الطالب ٢٠١ الشافي ٢٦٢/١ ،
الزيدية لحمود صبحي ١١٥ ، الأعلام للزركلي ١٧١/٥ ، والكامل لابن الأثير ٢١٣/٥ ، والفلك
الدوار ١٥ ، ٢٧ ، ٥٦ ، والتحف شرح الزلف ١٤٥ ، جمهرة أنساب العرب ٤٣ ، والمصايح ،
٥٥٥ ، ومجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم .

(٢) الإفادة ٨٨ .

في عصرنا الحسين بن حمزة، قال: أخبرني أبو النفس الزكية والشيبية المرضية حمزة بن أبي هاشم الإمام الرضى، يرفعه عن آبائه إلى شيخ من شيوخ آل الحسن كان يدرس عليه فتیان آل الحسن، وكانوا إذا جآءوا قام في وجوههم وعظمهم، فأقسموا عليه لا فعل. وكان القاسم عليه السلام من شباب ذلك العصر، وكان إذا أتى قام في وجهه وعظمه، فقالوا له: أيها السيد، إنا قد عذرناك وهذا الفتى لك أعذر، فقال: لو تعلمون من حق هذا ما أعلم لاستصغرت ما أصنع في حقه، فقالوا: وما تعلم؟ قال: هذا الفتى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: ((يخرج من ذريتي رجل مسروق الرباعيتين، لو كان بعدي نبي لكان هو))^(١). وفيه يقول الشاعر:

ولو أنه نادى المنادي بمكة ببطن منى فيمن تضم المواسم
من السيد السباق في كل غاية؟ لقال جميع الناس: لا شك قاسم
إمام من أبناء الأئمة قدمت له الشرف المعروف والمجد هاشم^(٢)
أبوه علي ذو الفضائل والنهي وآبائه والأمهات الفواطم
بنات رسول الله أكرم نسوة على الأرض والآباء شم خضارم^(٣)

(١) روى السيد العلامة الأمير الحسين بدر الدين في كتابه ينابيع النصيحة ص ٤٦٣ ما ورد من أخبار عن الإمام القاسم بن إبراهيم (ع) ما لفظه: ((فأما ما ورد فيه من الأخبار فمما هو في أفواه الناس، ويروونه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لفاطمة عليها السلام: ((يا فاطمة منك هاديتها ومهديها ومستلب الرباعيتين)) يعني القاسم بن إبراهيم هكذا يروونه مفسرا، ولم تصح لي فيه الرواية عمن أئق به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ونعوذ بالله أن نقول على رسول الله صلى الله عليه وآله ما لم يقل ثم روى لي من أئق فيه بإسناده إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لفاطمة عليها السلام: يا فاطمة منك هاديتها ومهديها ومسترق الرباعيتين، لو كان بعدي نبي لكان نبيا))

(٢) هذا البيت ساقط من (أ).

(٣) المصايح ٥٦٣ .

الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية . تأليف: شيخ الإسلام : الشهيد حميد بن أحمد بن محمد المحلي .
تحقيق: د. المرتضى بن زيد المَحْطُوري الحَسَنِي . الطبعة الثانية - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م - مكتبة مركز بدر للطباعة والنشر والتوزيع .
www.almahatwary.org

وله عليه السلام العلم العجيب، والتصانيف الرائقة في علم الكلام وغيره من الفنون.
فمنها: كتاب الدليل الكبير فإنه بالغ في الكلام على الفلاسفة مبالغة حسنة، وأشار فيه من لطيف الكلام إلا مالا ينتهي إليه إلا المبرزون، ولا يبلغه إلا المحصلون. ومنها: كتاب الدليل الصغير، وكتاب العدل والتوحيد الصغير، وكتاب العدل والتوحيد الكبير، وفيه من أصول العدل والتوحيد وتصديق الوعد والوعيد، والمبالغة في الكلام على الجبرية على لطافة حجمه ما يشهد بغزارة علمه ووفور فهمه. ومنها: كتاب الرد على ابن المقفع الذي نصر فيه القول بالتشبيه. ومنها: كتاب الرد على النصارى وهو من نفائس الكتب. ومنها: كتاب المسترشد، وكتاب الرد على المجبرة، وكتاب تأويل العرش والكرسي على المشبهة. ومنها: كتاب المسألة التي نقلت عنه في محاوره الملحد وهو: رجل من أرباب النظر من الملحدة، كان يغشى بجامع المسلمين ويورد عليهم الأسئلة الصعبة في قدم العالم وغير ذلك حتى وافاه عليه السلام، وأورد ما عنده من المشكلات، فوضح له الحق فتاب إلى الله تعالى، ثم قال: تعست أمة ضلت عن مثلك، وفيها^(١) من غرائب العلم وعجائبه ما يشهد بعلو منزلته وارتفاع درجته^(٢).

وروينا عن السيد أبي طالب عليه السلام^(٣)، رواه بإسناده إلى أبي القاسم البلخي عن مشائخه: أن جعفر بن حرب الهمداني دخل على القاسم بن إبراهيم فجاراه في دقائق علم الكلام، فلما خرج من عنده قال لأصحابه: أين كنا من هذا الرجل؟

(١) أي في المسألة .

(٢) انظر الإفادة ٨٨ .

(٣) الإفادة ٨٨ .

فوالله ما رأيت مثله، هذا وجعفر بن حرب من عيون المتكلمين والمتبحرين في الكلام.

ومن تصانيفه عليه السلام: كتاب تثبيت الإمامة، فإنه أحسن فيه كل الإحسان في نصرة مذهب الزيدية في تقديم أمير المؤمنين عليه السلام على المشائخ، وأورد من الأسئلة العجيبة في هذا المعنى على المتقدمين عليه ما يشهد بأنه البحر الزخار، والقمر النوار، والغمام المدرار.

وله في الفقه التصانيف العجيبة التي تشهد بتدقيقه وحسن تحقيقه، ومعرفته بالاختلاف بين الفقهاء، وجودة غوصه على استنباط الغرائب نحو: كتاب الفرائض والسنن، وكتاب الطهارة، وكتاب صلاة اليوم والليلة، ومسائل علي ابن جهشيار، وغير ذلك من تصانيفه. وكذلك كلامه عليه السلام في علوم القرآن فإنه إذا أخذ يتكلم فيها؛ فكأنه فنه الذي عليه نشأ. وله كتاب الناسخ والمنسوخ.

فأما زهده عليه السلام وورعه فمما لا يتمارى فيه اثنان، ولا يتراد فيه رجلان. شهد العداء بفضله كالأولياء والفضل ما شهدت به الأعداء. وله عليه السلام كتاب سياسة النفس؛ الذي من شاهده علم أنه خرج من قلب خاشع، وكذلك غيره من رسائله في الوعظ والتذكير.

وروى السيد أبو طالب عليه السلام^(١) بإسناده عن أبي عبدالله الفارسي قال: حججنا مع القاسم عليه السلام، فاستيقظت في بعض الليل فافتقدته، فخرجت وأتيت المسجد الحرام فإذا أنا به وراء المقام لاطيا بالأرض ساجدا، وقد بل الثرى بدموعه، وهو يقول: إلهي من أنا فتعذبني، فوالله ما تشين ملكك معصيتي، ولا تزين ملكك

(١) الإفادة ٩٩ .

طاعتي. قال السيد أبوطالب: وحكي عن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليهما السلام عن أبيه: أن المأمون كلف بعض العلوية أن يتوسط بينه وبين القاسم عليه السلام ويصل ما بينهما على أنه يبذل له مالا عظيما، فخاطبه في أن يبدأه بكتاب أو يجيب عن كتابه، فقال عليه السلام: لا يراني الله أفعل ذلك أبدا .

قال السيد أبو طالب^(١): ومن فحول أشعاره قوله عليه السلام:

| | |
|------------------------------------|--|
| وَأَقْصِرْ فِي الْمَسْنَى لِحِجْجُ | وَوَيْ التَّهَجِيرِ وَالِدَلَجِ ^(٢) |
| عَلَيْهِ مِنْ الْبَلَى نَهَجُ | وَطَافَ بِحَالِكِي وَضَحُ |
| عَلَاهُ مِنَ الرَّدَى ثَبَجُ | فَقَلَّتْ لِنَفْسٍ مَكْتَسِبِ |
| فَإِنْ الْحَبْلُ مُتَدَمِّجُ | قَطَى مَا دَمَتِ فِي مَهَلِ |
| فَوَجَّهَ الْحَقُّ مُتَبَلِّجُ | وَلَا تَسْتَوِ قَرِي شُبُهًا |
| إِذَا ضَاقَتْ بِهِ الْحُجْجُ | وَزُورَ الْقَوْلِ مُمَحَقُّ |
| أَلَيْسَ وَرَاءَكَ اللَّجْجُ | فَهَبِكِ رَتَّعْتَ فِي مَهَلِ |
| وَجَنَحَ اللَّيْلِ مُعْتَلِّجُ | وَعَاذَلْتِ تُوْرَقِي |
| لِكُلِّ مَهْمَةٍ فَهَرَجُ | فَقَلَّتْ: رَوَيْدًا عَاتِبَةً |
| سَتْ حَيْثُ الْمَالُ وَالْبَهْجُ؟ | أَسْرَكَ أَنْ أَكُونَ رَتْعُ |
| لِحَارِّ فِرَاقِهِ وَهَجُ | وَأَنْي بِسَتْ يَصْهَرِي |
| وَيَقِي الْوُزْرَ وَالْحَرْجُ | فَأَسْلُبَ مَا كَلَفْتُ بِهِ |
| تَضْضَائِقِي بِي وَتَنْفَرَجُ | ذُرِيَّتِي خَلْفَ قَاصِيَةٍ |

(١) الإفادة ٩٠ .

(٢) الدلج: السير في أول الليل .

ولا تُرْمِنُ بي غرضاً تطاير دونه المهجُ
إذا أكدى حيا وطن فلي في الأرض مُنْفِرُجُ

وله عليه السلام في الوصايا والحكم والآداب الجامعة للدين والدنيا كتاب المكنون. وكان عليه السلام مستجاب الدعوة. روى الشيخ أبو الفرج في كتابه الصغير في أخبار الطالبين [٥٥٦]: أن القاسم عليه السلام دعا إلى الله في خمصة فقال: اللهم إني أسألك بالاسم الذي دعاك به سليمان بن داوود فجاءه العرش قبل ارتداد الطرف، فتهدل البيت عليه رطبا. وروى بإسناده: أنه عليه السلام دعى مرة في ليلة مظلمة فقال: اللهم إني أسألك بالاسم الذي إذا دعيت به أجبت، فامتألاً البيت عليه نورا. وروى الإمام المنصور بالله عليه السلام: أن المأمون توصل بمن قدر عليه في أن يصفاه ويأمن جانبه، فأبى ذلك أشد الإباء، وبعث الحروري بوقر سبعة أبغل دنانير على أن يأخذها ويحجب عن كتابه أو يبتدئه بكتاب، فكره ذلك ورد المال، وكان قد مال إلى حي في البادية يقال لهم: حرب، فحاربوا دونه، ولما رد المال لامه أهله، فقال:

تقول التي أنا ردها وقآء الحوادث دون الردى
ألسنت ترى المال منهلة مخارم أفواهاها باللهي؟
فقلت لها وهي لوامة وفي عيشها لو صحت ما كفى
كفاف امرء قانع قوته ومَن يرض بالقوت نال الغنى
فلإني وما رمت من نيله وقبلك حب الغنى ما ازدهى
كذي الداء هاجت له شهوة فخاف عواقبها فاحتمى^(١)

(١) المصايح: ٥٥٦ .

وكان له عليه السلام أصحاب أخذوا العلم عنه؛ كأولاده النجباء: محمد، والحسن، والحسين، وسليمان، وكمحمد بن منصور المرادي، والحسن بن يحيى ابن الحسين بن زيد بن علي عم يحيى بن عمر الخارج بالكوفة، ويحيى بن الحسين ابن جعفر بن عبيدالله صاحب كتاب الأنساب، وله إليه مسائل. و منهم: عبدالله ابن يحيى القومسي العلوي الذي أكثر الناصر للحق الحسن بن علي عليه السلام الرواية عنه، ومنهم: محمد بن موسى الخوارزمي العابد قد روى عنه فقها كثيرا، وعلي ابن جهشيار، وأبو عبدالله أحمد بن محمد بن الحسن بن سلام الكوفي صاحب فقه كثير وروايات غزيرة. ذكر ذلك السيد أبو طالب عليه السلام ^(١).

ذكر بيعته عليه السلام ونبذ من سيرته واستتاره ^(٢)

لما استشهد أخوه محمد بن إبراهيم عليه السلام وهو بمصر دعا إلى نفسه، وبث الدعاة وهو على حال الاستتار، فأجابه عالم من الناس من بلدان مختلفة، وجاءته بيعة أهل مكة والمدينة والكوفة، وأهل الري وقزوین وطبرستان وتخوم الديلم، وكاتبه أهل العدل من البصرة والأهواز، وحثوه على الظهور وإظهار الدعوة، وأقام عليه السلام بمصر نحو عشر سنين، واشتد الطلب له هناك من عبدالله بن طاهر فلم يمكنه المقام، فعاد إلى بلاد الحجاز وتهامة، وخرج جماعة من دعائه من بني عمه وغيرهم إلى بلخ والطالقان والجوزجان؛ فبايعه كثير من أهلها، وسألوه أن ينفذ إليهم بولد له ليظهروا الدعوة، فانتشر خبره قبل التمكن من ذلك، فوجهت الجيوش في طلبه، فأنحاز إلى حي من البدو واستخفى فيهم، وأراد الخروج بالمدينة في وقت من الأوقات، فأشار عليه أصحابه بأن لا يفعل ذلك، وقالوا: إن المدينة والحجاز

(١) الإفادة ٨٩ .

(٢) ينظر الإفادة: ٩٤ ، والمصايح ٥٦٣ - ٥٦٤ .

تسرع إليهما العساكر ولا يتمكن فيها من الميرة^(١)، ولم يزل على هذه الطريقة
مثابرا على الدعوة، صابرا على التغرب والتردد في النواحي والبلدان، متحملا
للشدة مجتهدا في إظهار دين الله .

ولما اجتمع أمره وقت خروجه بعد وفاة المأمون وتولي محمد بن هارون
الملقب بالمتعصم شدد محمد هذا في طلبه، وأنفذ عساكر كثيفة في تتبع أثره،
وأحوج إلى الانفراد عن أصحابه، وانتقض أمر ظهوره. ذكره السيد أبو طالب عليه السلام
قال: وله بيعات كثيرة في أوقات مختلفة أولها سنة تسع وتسعين ومائة، والبيعة
الجامعة لفضلاء أهل البيت عليهم السلام كانت سنة عشرين ومائتين في منزل محمد
بن منصور المرادي بالكوفة، فإنه بايعه هناك أحمد بن عيسى بن زيد فقيه آل رسول
الله صلى الله عليه وآله وعابدهم، وعبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن

الحسن الفاضل الزاهد، والحسن بن يحيى بن الحسين بن زيد، وكانت فضيلة
السبق إلى منابذة الظالمين انتهت إلى هؤلاء، فاتفقوا على بيعة القاسم عليه السلام،
وكانوا قد امتحنوا على فضلهم المشهور بالاستتار الشديد.

روينا عن السيد أبي طالب عليه السلام في أماليه [١٢٧-١٢٨] قال: روى أبو عبدالله
محمد بن يزيد المهلي قال: حدثنا محمد بن زكريا الغلابي قال: صرت إلى أحمد ابن
عيسى وهو متوار بالبصرة فقال لي: لما طلبنا هارون - يعني الملقب بالرشيد -
خرجت أنا والقاسم بن إبراهيم وعبدالله بن موسى بن عبدالله ابن الحسن بن
الحسن فتفرقنا في البلاد، ف وقعت إلى ناحية الري، ووقع عبدالله بن موسى إلى
الشام، وخرج القاسم بن إبراهيم إلى اليمن، فلما توفي هارون اجتمعنا في الموسم

(١) وهي جلب الطعام .

فتشاكينا ما مر علينا، فقال القاسم عليه السلام: أشد ما مر بي أني لما خرجت من مكة أريد اليمن في مفازة لا ماء فيها ومعني بنت عمي وهي زوجتي وبها جبل، فجاءها المخاض في ذلك الوقت، فحفرت لها حفرة لتتولى أمر نفسها، وضربت في الأرض أطلب لها ماء، فرجعت وقد ولدت غلاما وأجهدتها العطش فألححت في طلب الماء فرجعت إليها وقد ماتت والصبي حي، فكان بقاء الغلام أشد علي من وفاة أمه، فصليت ركعتين ودعوت الله أن يقبضه فما فرغت من دعائي حتى مات.

وشكى عبدالله بن موسى: أنه خرج من بعض قرى الشام وقد حث عليه الطلب وأنه صار إلى بعض المسالح^(١) وقد تزيأ بزوي الأكرة^(٢) والفلاحين، فسخره بعض الجند وحمل على ظهره شيئا، وكان إذا أعيأ ووضع ما على ظهره للاستراحة ضربه ضربا شديدا وقال: لعنك الله ولعن من أنت منه!

وقال أحمد بن عيسى: وكان من غليظ ما نالني أني صرت إلى ورزتين ومعني ابني محمد، وتزوجت إلى بعض الحاكة هناك، وتكنيت بأبي حفص الجصاص، فكنت أغدو وأقعد مع بعض من آنس به من الشيعة، ثم أروح إلى منزلي كأني قد عملت يومي، وولدت المرأة بنتا. وتزوج ابني محمد إلى بعض موالي عبدالقيس هناك، فأظهر مثلما أظهرته، فلما صار لابنتي نحو عشر سنين طالبني أخوالها بتزويجها من رجل من الحاكة له فيهم قدر، فضقت ذرعا بما دفعت إليه، وخفت من إظهار نسبي، وألح القوم علي في تزويجها؛ ففزعت إلى الله تعالى وتضرعت إليه في أن يختار لها ويقبضها ويحسن علي الخلف، فأصبحت الصبية عليلة ثم ماتت من يومها، فخرجت مبادرا إلى ابني محمد أبشره فلقيني في الطريق، وأعلمني أنه ولد له

(١) أي النغور .

(٢) الحراثين المزارعين .

ولد فسميته عليا، وهو بناحية ورزتين لا أعرف له خيرا للاستتار^(١) الذي أنا فيه^(٢) .

وروى السيد أبو طالب العَلَيْيَّة^(٣) بإسناده عن أبي عبدالله الفارسي قال: ضاق بالإمام القاسم بن إبراهيم السَلَيْيَّة المسالك، واشتد الطلب ونحن مختلفون معه خلف حانوت إسكاف من خلص الزيدية، فنودي نداءً يبلغنا صوته: برئت الذمة ممن أوى القاسم بن إبراهيم وممن لا يدل عليه، ومن دل عليه فله ألف دينار وكذا وكذا من البز، والإسكاف مطرق يسمع ويعمل لا يرفع رأسه، فلما جاءنا قلنا: ما ارتعت؟ قال: ومن لي بارتياحي، ولو قرضت بالمقاريض بعد رضى رسول الله ﷺ عني في وقاية ولده بنفسي. فأقام السَلَيْيَّة طول مدته مخيفا للظالمين، شجى في حلوق الفاسقين غير أن المقادير لم تساعد إلى كل ما أراد من رخص أدران الفساد.

قال السيد أبو طالب العَلَيْيَّة^(٤) : وكان القاسم العَلَيْيَّة انتقل إلى الرس في آخر أيامه، وهي أرض اشتراها السَلَيْيَّة وراء جبل أسود بالقرب من ذي الحليفة، وبني هناك لنفسه ولولده وتوفي بها - وقد حصل له ثواب المجاهدين من الأئمة السابقين - سنة ست وأربعين ومائتين، وله سبع وسبعون سنة، ودفن فيها ومشهده معروف يزوره من يريد زيارته فيخرج من المدينة إليه.

(١) في (أ): إلا الاستتار .

(٢) الأمالي ١٢٨ .

(٣) الإفادة ٩٩ .

(٤) الإفادة ١٠٠ .

ذكر نكت من كلامه عليه السلام:

قال عليه السلام في صدر كتاب المكنون: أستعصم الله بعصمته التي لا تهتك، وأسترشده إلى السبيل الذي ينجو به من الردى من هلك، وأستوهبه التوفيق لهدايته، والحظ الوافر من طاعته، وأرغب إليه في إلهام حكمته، واجتناب معصيته^(١).

وقال عليه السلام فيه: يا بني ولخير خصال المرء أن يكون على حاله مستشرفاً، ولأوده مثقفاً، وبما يكون له من غيره متعرفاً من جميل يومىء به إليه، أو مذموم خليقة يطعن من أجلها عليه، يا بني فكل من لم يفصل بالتمييز ما يعنيه من زمنه، ويحذر مضلات فتنه، ويدخر لنفسه في جدته ما يحمد غبه في عاقبته، ويحتر الزيادة على النقصان، والربح على الخسران، فهو كالماص لثدي أمه، المخدوج قبل تمه^(٢).

ومن كلامه عليه السلام فيه: ومن أعجب العجائب ذو شبيبة مرتد بالنوائب، متسربل بالمصائب، يستنكر رتب التصاريف، ويفجر أمامه بالتسوييف، وذلك لضعف نخبته^(٣)، ونسيانه لما يتصرف فيه من أزمته، وكثرة سهوه وغفلته عما قد أفهمته خبرته، وانتظمته تجربته، فلو غيب عن العاقل اللبيب كل أمر عجيب مما فطر عليه المفطورون، وقصر عن الإحاطة بخبره العالمون؛ لكان فيما طبع عليه في ذات نفسه، وما يمر به في يومه وأمسه: من الفقر والغنى، والسراء والضراء، والأخذ والعطاء، والبذل والإكداء، وكثرة السكوت وطول الصموت، والإكثار في المنطق والهذر، وسرعة القلق، والجد والهزل، وغلبة الجهل على العقل؛ له أشغل

(١) مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم ٢/٢٩٣ .

(٢) المجموع ٢/٢٩٦ .

(٣) نخبته الرجل: طبيعته.

شاغل عن الفكرة في خلائق الإنسان، وتضاد ما يختلف فيه من الجهل والعرفان،
والموثوق منها معروف، والمعلّى منها مشغوف، فمن جنح إلى الأقل كبح
واستوجل^(١) ، وذم غب المصدر، وكان من أمره على خطر، وأندمته آخرته لما قد
دله على علمه أوليته، وليس بحكيم من مال إلى الأمر المذموم. والخيلاء بالفضل
مجانب لسبيل العقل، ومن جعل غيره لعينه نصبا، وأظهر على من سواه في سيء
أفعاله عتبا، وكان الذي فيه لطالب عثرته أعتب^(٢) ، كان الواجب عليه أن يكون
على نفسه أعتب ؛ لأن من استنكر أمرا من غيره يرضى في نفسه بمثله فقد دل على
جهله، ومن سهى عما يعنيه كان ما لا يعنيه أجدر أن لا يؤاياه^(٣) .

وقال الكَلْبِيّ: وإن من المنكرات في من يسم نفسه بميسم الخيرات أن يضرب
بطرفه صاعدا، ويكون على غيره واجدا، ولزناده زاندا، كأنه قد تهذب من
الأدناس، وأمن معتبة^(٤) الناس، واستقام على سوق الريادة للمستريد، أو ما عرف
المعدوم من الموجود، والخير من الشر، والنفع من الضر، والحر من القر، حيث
سلك في أحشائه، واتصل بجواسه وأجزائه، ثم أدته الأركان إلى الأركان، والروح
إلى الجثمان، ثم صرفته تلك العوارض الخاطرة، والنوازل السائرة فاستنفرته إلى
السخط مرة وإلى الرضى أخرى؛ فأسرف في الخلتين^(٥) ومال عن النجدتين، فأين

(١) في (أ) فاستوجل .

(٢) في (أ) أعيب .

(٣) مجموع رسائل الإمام القاسم ٢/٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٤) في (أ) مغيبة .

(٥) في (أ): في الخلين .

مستقر القديم منه^(١)؟ حيث لم يدرأ عنه النوازل الممضة، والآفات العارضة، ويستدعي لنفسه بدرأته لذلك عاجل السلوة، وينفي عنها نواذر الشقوة، ويعاود ما يديم له السرور، ويدفع عنه المخدور، ولو ألهم نفسه أحسن ما يلهم لزاح عنه خاطر الهم، ولم يعدم محمود العاقبة وعلو الذكر في القيام، والصوت الرفيع في محافل الأقبام، ولا قصر عن شقشقتة وشهد بالفضل المزائل^(٢) طريقته، ولكنه لم يحم أنفه، وقل عن مزائلة ما تمواه نفسه إلفه، فامتشجت^(٣) الادواء في آرابه، واستلبته رصين آدابه؛ فابتغى السلامة من غير جهتها، والراحة بعد فوئها، كلالن يكون فرع من غير أصل، ولا جود إلا ببذل، ولا زكا مخلوق إلا بفضل يجشم فيه نفسه المجهود، ويستدعي لها به^(٤) الثناء المحمود، ويجنبها الموبقات والشهوات المرديات، وليس من نفس إلا وهي تراود صاحبها على الهوى، وتدعوه إلى موارد الردى، فمن أعطاهها زمامه أركبته ردعه^(٥) . ومن منعها ما تموى فاز بالرغبا، ففي هذا لكم يا بني بيان ومعتبر. ومن لم يستظهر بالحزم على مذاق الأخلاق ودناءتها، ويزجر النفس عن شهواتها، قصر دون رميته، ولم يدرك الثناء الذي سما إليه بأمنيته.

ومن أحب أن تخضع له غلب الرقاب، ويقل في طاعته الارتياب، وينتهي عن أمره ونهيته، ويقتدى برأيه، فليأصر^(٦) نفسه من ذلك على ما يريده من غيره؛

(١) في (أ): فيه .

(٢) في (أ): المزائل .

(٣) أي: اختلطت .

(٤) اللهباب: اشتعال النار ، إذا خلص من الدخان . قاموس ١٧٣ .

(٥) الردع: بمعنى الكف أو المنع .

(٦) الأصر: الحبس . قاموس ٤٣٨ .

فإن انقادت لأمره، وازدجرت عند زجره؛ فليضمم كفه من غيره على إنفاذ أمره؛ لأن تمذيب المرء لطريقته يدعو إلى طاعته، والمقصر عن طلب منفعته تنزل موعظته عن القلوب زلول القطر عن الصفوان الصليب، فأوقعوا يا بني الموعظة بقلوبكم، فيا أيها المبتغي الدرك في العاجل، والفوز في الآجل، اجعل لك من نفسك موعدا تحفظ به اليوم، وتفزع به غدا، بصدق لا يشاب بالتفنيدي، ورجاء الموعود وخوف الوعيد، واسم لما أحببت من ذلك بالعقل العتيد، والرأي السديد، والفعل الحميد، وأنا سفيرك فيه بالدرك لما تريد، وإنما أعجز الطلاب ما إليه يسمون تعسفهم السبيل^(١) التي فيها عن القصد يجورون، فلم يدركوا ما طلبوا، ولم ينالوا ما أحبوا^(٢) .

وقال عليه السلام: والعقل آمن أمين، وأفضل قرين، فاستأمنه على أحوالك وجميع خلالك، واعرف ما عرفك، وإذا أحمدت من أحد مذهبا فكن لمثله متسببا^(٣) ، ولكل ما تستنكره من غيرك محتسبا، ولتكثر من مستتر عيوبك وحشتك، وليقل بخفياتها أنسك، فإن اكتتامها كالمحرض على أمثالها، وإذا امتلأ الإناء انكفاً، وإذا تنوسخ السر فشا.

وقال عليه السلام: عليك بالحلم، فإنه ليس يسمى الرجل حليما حتى يملك نفسه عند الغضب، ولا جوادا حتى يفيد إذا ازلام الأذب^(٤) ، وإنما يوصف بالنجدة من

(١) سقط من (أ): السبيل .

(٢) مجموع رسائل الإمام القاسم ٣٠١/٢ .

(٣) في (أ): مسيبا .

(٤) ازلام: ازلام الضحى: انبسط . تاج العروس ٣٢٤ / ١٦ . وأذب: الأذبة لغة في الأزمة وهي الشدة والقحط . تاج العروس ٣٠٢ / ١ .

باشر أهل البأس والشدة، (وللمحاسن والمحامد نواد معتمدة، تطلع إليها الأفئدة)^(١) ، ثم يبذل فيها الغالي من الأثمان، وتنضى لها العيس إلى البلدان، فمن سره أن يشهد بالجميل والإحسان فليشهد التي منها يتناقلان، ثم ليظهر منها ما يسير في الآفاق خبره، ويعظم بها في الناس خطره، ثم ليقوم من نفسه بحسن التعاهد لها أودها، وليأخذ منها لها ما تزين به غدها، فإن الأخلاق إذا سمحت، والعلانية والسريرة إذا صحت، كانت غنائم يرتحل إليها المرتحلون، وأحاديث حسنة ينقلها الناقلون، وتبجيلا لصاحبها في العالمين، وغبطة^(٢) يغتبط بها يوم الدين.

والواجب في الأخلاق أكثر من الواجب في الأموال، وأفضل في جميع الأحوال، وإنما يعظم ذو المال ما كان موثلا، فإذا تخرم ماله عاد دحيرا قليلا، والأخلاق لا يلى جديدها، ولا يطيش سديدها، وفضل صاحبها باق في حياته وبعد وفاته، والمال ثوب تخلق جدته، وتسلم سداه لحمته. وأحق الأشياء بالصون العرض^(٣) الصحيح، والحسب الصريح. ومن آتاه الله قلبا ذكيا وزنادا وريا وخلقاً مرضيا، وسخى مذكورا، وعقلا زكيا، وفهما رصيا، وعلما بتقلب الأحوال وتصرف الأيام والليال، ولسانا يؤدي إليهما معرفة خلف الأزمان، ويمتتهنهما فيما يعود على نفعه كل الامتهان، ثم زم نفسه عن الكبرة، واعتاض من التجبر حسن العشرة، وقل افتخاره عند مناظرته، ولم يستدع نظيره إلى مباحثته، ولم يجار الجاري^(٤) له من طبقاته في طريق مساواته، ولم يخرج من القول إلى ما لا يعلم ولا

(١) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(٢) سقط من (أ) وغبطة . والغبطة بالكسر: حمسن الحال والسرة . قاموس .

(٣) في (أ): العريض .

(٤) في (أ): ولم يجاز الجاري .

من الفعل إلى ما يستعظم، فقد شرى لنفسه محمداً الحاضر والباد، واجتهد لنفسه في مصلحته أشد الاجتهاد، واستحق التعظيم من جميع من ضمته أقطار البلاد، واجتمعت له الطرائق السمحة، وراحت عنه المذاهب المستقبحة، وجرى عليه اسم الخيرة، ونظرته بالنواظر المبجلة كل عين مبصرة، وحاز حد الأكفاء، واعترف له بالفضل كل النظراء^(١) .

ومن كلامه **الْكَلْبُ**: من عجز إدراك الحواس باريها ثبت له التوحيد، وباستحقاق التوحيد ثبت العدل ؛ لأن المتفرد بالوحدانية لا يجور لوجود الجور فيمن ليس بواحد. ولما ثبت العدل وجب الوعد على المطيع، والوعيد على العاصي، ولما صح الوعد والوعيد وجب التحايز بين المتظالمين، وهو بالرسول الأمر النهي بما آتاه الله بعد استحقاقه منه الرسالة^(٢) بالطاعة والاتصال به، فأظهر عليه علامة الاتصال بالمعجزات والدلالات فرقا بين المتصل والمنقطع عن الله، ليصح خبر رسوله عنه، ولما لم تجر في العقل مشافهة الباري وخطابه لخلقه خاطبهم منهم بجنسهم ومثلهم؛ إذ ليس في فطرهم غير ذلك^(٣) .

ومن كلامه **الْكَلْبُ**: من لم يعلم في دين الإسلام خمسة من الأصول فهو ضال جهول: أولهن: أن الله سبحانه واحد ليس كمثلته شيء، وهو خالق كل شيء، يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير. والثاني من الأصول: أن الله سبحانه عدل حكيم، غير جائر لا يكلف نفسا إلا وسعها، ولا يعذبها إلا بذنبها. لم يمنع أحدا من طاعته بل أمره بها، ولم يدخل أحدا في معصيته بل نهاه عنها.

(١) مجموع الرسائل ٢ / ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٢) في (أ): للرسالة .

(٣) مجموع الرسائل ١ / ٦٥١ .

والثالث من الأصول: أن الله سبحانه صادق الوعد والوعيد، يجزي بمثقال ذرة خيرا، ويجزي بمثقال ذرة شرا. من صيره إلى العذاب فهو فيه أبدا خالد مخلد كخلود من صيره إلى الثواب الذي لا ينفد. **والرابع من الأصول:** أن القرآن المجيد فصل محكم وصراط مستقيم، لا خلاف فيه ولا اختلاف، وأن سنة رسول الله ﷺ ما كان لها ذكر في القرآن ومعنى. **والخامس من الأصول:** أن القلب بالأموال والتجارات في المكاسب في وقت ما تعطل فيه الأحكام، وينتهب ما جعل الله للأرامل والأيتام والمكافيف والزمنى وسائر الضعفاء ليس من الحل والإطلاق كمثلته في وقت ولادة العدل والإحسان والقائمين بحدود الرحمن، فجميع هذه الأصول الخمسة لا يسع أحدا من المكلفين جهلها، بل يجب عليهم معرفتها^(١).

وقال الكَلْبَلَاءُ في بعض مواعظه: أما بعد، فإن الدنيا دار غرور، لا يدوم فيها سرور، ولا يؤمن فيها محذور. جديدها يبلى، وخيرها يفنى. من وثق بها خدعته، ومن اطمأن إليها صرعته، ومن أكرمها أهانتها. أفراحها تعقب أحزانها، ولذاتها تورث أشجانها. أما بعد: فأن أعمار الدنيا قصيرة، ورحاها مديرة، وسهاماتها قاصدة، وحتوفها راصدة. المغرور من اغتر بها، والمخدوع من ركن إليها. من زهد فيها كفيها، ومن رغب عنها وطبها قد غرت القرون الماضية، وهي على الباقيين آتية؛ فيا بؤسا للباقيين لا يعتبرون بالماضين، يجمعون للوارثين، ويقيمون في محلة المتحيرين.

أما بعد: فاقنع باليسير، وبادر في التشمير^(٢)، وإياك والتغدير، وانظر إلى ما تصير، فليس الأمر بصغير، وهيب زارك للمسير، فقد أتاك النذير. أما بعد: فقد

(١) مجموع الرسائل ١/ ٦٤٧-٦٤٨ .

(٢) سقط من (أ): وبادر في التشمير .

وضح لك الطريق؛ فلا تحيدن عن إطاره إلى المضيق، فقد مضت الأيام وذهبت
الأعوام، وفنيت الأعمار وأحصيت الآثار، وعن قليل تدعى فتجيب، وتظعن
فتغيب؛ فعجب لقلبك كيف لا يتصدع، وعجب لركنك كيف لا يتضعضع،
وعجب لجسمك كيف لا يتزعزع؟! أما بعد: فإنه ليس لحي في الدنيا مقام، وعن
قليل يأتيك الحمام، وكل خلق تفنيه الأيام، فلا تكن كالغافل النوام، فإنما الدنيا إلى
انصرام، ولن يرى فيها دوام .

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله فيما تقدم^(١) إليكم واحتج به عليكم، من قبل
اللهف والندم، ومن قبل أخذ بالكظم وانقطاع المدة، واستكمال العدة، ومن قبل
التلاقي واللزام، وأخذ بالنواصي والأقدام، فكأن قد نزلت بكم نازلة الفناء،
وأخرجتم إلى دار البقاء، وكشف عنكم الغطاء، وتجرعتم سكرات الموت، وخضتم
غمرات الآخرة، وأتاكم ما كنتم توعدون، وعايينتم ما كنتم تحذرون .

أما بعد: فإنه لا عذر لمن هلك بعد المعرفة والبيان، ولا حجة لمن ركن إلى
دار الفناء والحدثان، ولا ندم يغني عند وقوع العيان، ولا حيلة تنفع عند فوت
الزمان، وعند السياق وكلول اللسان، ولا ولد ينفع، ولا أهل يمنع، في مصرع
هائل، وشغل شاغل، يدعا فلا يسمع، وينادي فلا يجيب، في غصص الموت
وسكراته، وتجرع زفراته، وغمومه وحسراته، قد علاك الأنين، وأتاك الأمر اليقين،
فلا عذر فتعتذر، ولا ردة فتزدجر، قد عايينت نفسك حقائق الأمور، وحللت في
مساكن أهل القبور، في ملحد محذور، قد افترشت اللبن بعد لين الوطاء، وسكنت
بين الموتى بعد مساكنة الأحياء، فالنجاء النجاء، قبل حضور الفناء .

(١) في (أ): قدم .

أما بعد: فإن الدنيا أيام قلائل، وكل ما فيها ذاهب زائل، فتعز بالصبر عن الشهوات، وتناء بالحذر عن اللذات، وفكر فيما اقترفت على نفسك من الذنوب، وفيما قد ستر الله عليك من العيوب.

أما علمت حين عصيته أنه^(١) لم يكن بينك وبينه ستر يواريك منه، أما استحييت من مولاك؟! وقد علمت أنه يراك، أما خفت العقوبة حين آثرت على تقواه هواك؟!.

أما بعد: فيا يؤسا من مخالف خاسر، وخائن غادر!!، أما إنك عن قليل، تهجم على البلاء الطويل، فتدرك نفسك إذا عرضتها للمهالك، واسلك^(٢) الطريق الواضح من المسالك، ولا تطمعها^(٣) في راحتها أيام حياتها، واستطرف لها النصب، واحملها على التعب؛ لما ترجو أن تصير إليه من الراحة غدا، فكأنك قد دعيت فأجبت، فاعمل لنفسك ما دمت في مهلة، وفقنا الله وإياك لما يحب ويرضى.

أما بعد: فاحذر على نفسك ختر الدنيا ومكرها، وخذعها وغدرها؛ فإنها متبرجة لطلابها فاحذرها، لا تكن لها قتيلا، والتمس لنفسك^(٤) للنجاة منها سبيلا، وانظر لنفسك أيام مكثك فيها، واعلم أنها مرحلة سكاها، وأن متاعها قليل، وخطبها جليل، ونعيمها زائل، وخيرها مائل.

(١) في (أ): ساقطة (أما عملت) و (أنه) .

(٢) في المجموع ((واسلك بها)) .

(٣) في (أ): تطعها .

(٤) سقط من (أ): والتمس لنفسك .

أما بعد: فكن في سفرك مرتادا، وهيبى عدة وزادا ؛ فكأنك قد خرجت من روح الدنيا إلى ضيق اللحد وخشونة متكته^(١) ، فتيقظ من نومة الغافلين، وانتبه من وسنة الجاهلين، وانظر بعينك إلى مصارع المغترين، ومضاجع المستكبرين، أليس ديارهم خالية، وأجسادهم بالية، ومساكنهم مقفرة، وعظامهم نخرة، وعروقهم بالية، وأيامهم فانية؟.

أما بعد: فإنك لو رأيت يسير ما بقي من عمرك وأجلك لزهدت في طول ما ترجو من أملك، ورغبت في الزيادة من عملك؛ فإنك إنما تلقى غدا في حفرتك، وتخلى في وهدتك^(٢) ، ويتبرأ منك القريب، ويتسلى منك الحبيب، فلا أنت إلى أهلك راجع، ولا في عملك زائد شارع، فاعمل ليوم القيامة ليوم^(٣) الحسرة والندامة.

أما بعد: فلا يمل بك الأمل الكاذب، ولا تكن كالشاهد الغائب؛ فإنك والقوم على بساط واحد، والموت يأتي على كل صادر ووارد، فلا يذهبن قولي لك^(٤) صفحا، فإني لم آلك حضا ونصحا؛ فإن تقبل نصيحتي فأنت لذلك أسعد، وبه أعلى عينا وأرشد، وعن قليل يأتيك الخبر، فالحذر الحذر، فإنه يأتي أسرع من لمح البصر.

(١) في المجموع ((المتكأ)).

(٢) الوهدة: الهوة تكون في الأرض .

(٣) في (أ): ومجموع الرسائل: قبل .

(٤) في مجموع رسائل الإمام ((عنك)).

أما بعد: فإن الدنيا بحر عميق، ولنيرانها لهب وحريق، ولطرقها مفاوز ومضيق، فاتخذ زادا^(١) لبعدها مفاوزها ومضيقها، فأعد عدة السير تزحزح به عن لهبها وحريقها، واتخذ سفينة تنجو بها من بحر عميقها، وقرب عليك الأجل، لا تخدعك بآمالها ومكرها، وقد عرفتك نفسها، وأوضحت لك لبسها، فلا تغم وأنت بصير، ولا تأمن وأنت بتحذير، فإن الذي بقي من عمرك قليل، فإما الثواب الجزيل، وإما البلاء الطويل، فكن بعملك منتفعا، وللموت متوقعا، فإنك لا تدري على أي حال يأتيك، وفي أي وقت يفاجئك، فعجبا لك يا مكنون الأجل، كيف تغتر بطول الأمل! فابك على نفسك إن كنت باكيا، وتيقظ من غفلتك إن كنت لاهيا.

أما بعد: فإنك قد أخرجت من روح الدنيا ومساكنها، وأبدت أهلكت لغيرك^(٢) سكنها ومحاسنها، ونسيت ما كان لها من كدك، وتغيرت عما كانت لك عليه من بعدك، فتمتعوا بمالك، ولم يعبوا بحالك، لمن لا يرثي لك غدا من صرعتك، ولا يؤنسك غدا في وحشتك، فلا تبع يا مسكين بدنياك آخرتك، ولا تنخدع لها فترك رقبته، وعليك بنفسك أكرم الأنفس عليك، وأحب الأنفس إليك، واعلم أنك مسئول ومحاسب ومعاقب، فارغب في الثواب، وارهب من العقاب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(٣).

وقال عليه السلام في كتاب سياسة النفس: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم، ونسأل الله ولي نعمة الابتداء، ومسهل سبيل قصد الاهتداء،

(١) في المجموع: فالحذر إذا .

(٢) في (أ): وأبدت أهلكت بغيرك .

(٣) انظر مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم ٢ / ٤٧٧ - ٤٨٠ .

أن يمن علينا وعليكم بشكر نعمه في ابتدائه، ويحسن إلينا وإليكم بعونه على سلوك سبيل أوليائه، التي أرجو أن تكون أنفسكم لها وفيها، ولما أنتم عليه لله من التمسك بها، والقصد إليها من الأنفس التي أذن الله بعمارها، ورمى إليها بأسباب حياتها، فقد عقد الله لكم بذلك لدينا عقد الخلة والإخاء، ووكد بذلك لكم علينا أخوة الخاصة والأولياء، فأيقنوا أنه لم يوصل سبب من الأسباب بين المتواصلين، ولم يعقد خلة من الخلل بين المتخالين من الأولين من خلق الله لا ولا من الآخرين بغير ما يرضي الله سبحانه من التقوى، ويستحقه جل ثناؤه من الطاعة له والرضى، إلا كانت وصلة حسرة وانقطاع، وخلة ندم غدا واسترجاع، يدعوا أهلها فيها بالويل والعيول، ويصيرون بها في الآخرة إلى خزي طويل، ذلك قوله جل ثناؤه:

﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الرحرف:٦٧]. وقوله تعالى عن القائلين: ﴿يَنوَيْتُنِي لِيَتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان:٢٨-٢٩] . ونحن نرجو وليكم الله أن يكون وصلة ما بيننا، وما عقد الله - فله الحمد - عليه خلتنا، سببا عقده الله بالإيمان، وأسس منه على رضوان، فمن أحق بالتعظيم منا له؟ لما كانت الأبرار تعظمه، ومن خير ما قدمنا فيه ما كانت الأتقياء^(١) تقدمه، من كل ما كان لهم على بغيتهم من النجاة دليلا، وإلى ما يلتمسون من فوز حياة الخلد عند الله سبيلا، من التذكير في بقاء الآخرة، وفناء الدنيا بما ذكر، والائتمار في عاجل هذه الدنيا من التقوى بما به^(٢) أمر، فافهموا ذلك فهمنا الله وإياكم سبيل الخير، ونفعنا

(١) في (أ): ألا يقينا .

(٢) في (أ): غاية .

ونفعكم فيها بمنافع التذكير، فإنه يقول سبحانه: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، والدنيا وإن كان عمرها قصيرا وبقاء أهلها فيها قليلا
يسيرا، فاعلموا رحمكم الله أنها وإن كانت كذلك متجر لأرباح فوائد التقوى،
ومكسب غنم لمن تكسب فيها، ومحل محصب لمن تزود إليها منها^(١)، وذلك أنه
خلقها سبحانه لعبادته، وأمر خلقه فيها بطاعته، ونعاهم إليهم قبل فنائها، وأخبرهم
جل ثناؤه بقصر مدتها وبقائتها، فقلل بأحق الحقائق في أعينهم ما يستكثرونه من
كثيرها، وقصر في كتابه الناطق عندهم ما يستطيعونه من تعمييرها فقال سبحانه:
﴿الْمَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ
عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ تَحْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا
لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ
خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [٧٧-٧٨]. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّن تَحْشَنَهَا
بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَقُولُوا هَذِهِ مِّنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٧-٧٨]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّن تَحْشَنَهَا
﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات: ٤٥-٤٦]. وقال

(١) في مجموع رسائل الإمام القاسم ٣٣٤/٢ بزيادة: ((ومعبر لمن تبلغ بما عند ظفره بكسبها وإلى دار مقام
ومحل دوام ليس عنها لمن نزلها انتقال . ولا منها بعد طولها زوال))

تبارك وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٤٥] ^(١) .

وقال العلامة في موضع آخر من هذا الكتاب: واعلموا أن القلوب كالآنية المصدوعة، لما تنازع إليه من غرائزها المطبوعة؛ فإن لم ترهم صدوعها لم يصح مطبوعها، على بنية اعتداله فيما فطرها الله عليه من كماله، فرموها بالعلم بكتاب الله وترتيله، والوقوف على محكم تأويله، ففي ذلك لها تقويم وتعديل، وهداية ونور ودليل، على منهاج خالص الطريق المساير لها في حب الله وطاعته، وما أوجب الله على العباد من أثرته وعبادته، وبكتاب الله تنجلي عن القلب ظلم الحيرة، وبلطف النظر فيه يدرك حقائق العلم أهل البصيرة، وبسبيل الله فيه المطرقة بكون هدايات المتقين في الثقة في نيل الغايات القصوى، وبلوغ الدرجات العلى، وقد زعم بعض أهل الحيرة والنقص، ومن لا يعرف عين النجاة والتخلص أن الألطاف في النظر، يدعو صاحبه إلى الخيلاء والبطر، وإنما يكون ذلك كذلك عند من يريده للترؤس لا لما فيه، وما جعله الله عليه من حياة الأنفس، فانفوا مثل هذا عن ضمائرهم، وسدوا ثلثة عيبه في سرآئركم، واعلموا أن البحر لا يجاز يقينا بتنا إلا بمعبر، وأنه قد يحتاج الشجاع المحارب إلى السلاح في الحرب فكيف بالغبي المغتر؟، فلا يتعاط أحد سبيل التقوى، وما قرن الله بها من التمحيص والبلوى، إلا وقد تحصن ^(٢) بالعلم والبصر، الذي ميز الله به بين أهل الخير والشر، فلا تدعوا - رحمكم الله - حسن النظر في الأمور، والاستضاءة في ظلمها بما جعل الله في العلم من النور. واعلموا أن

(١) ينظر مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم ٢/٣٣٣ - ٣٣٥ .

(٢) في (أ): محص .

من أبواب ذلك ومفاتيحه، وأضواء ضياء نوره ومصايحه، إخلاص العمل لله،
وصدق التوكل على الله، وسبب الطريق إليها وعون من أراد ما فيها حسن الفكر
في الدنيا وفنائها، وتقلب سرائها وضرائها، وفي حال جميع ما فيها من ملوك الأمم
خاصة، ومن دونهم من الخلق جميعا عامة، فإنكم إن تفكرتم فتروا بعين الفكرة،
وتبصروا أنهم جميعا منها وإن اختلفت حالهم فيها من السعادة والشقاء قد غشيهم
من همومها كأمثال الجبال، وورمت بهم من غمومها في مثل لجج البحار، فالملك في
شغل من ملكه، والمملوك في سطوة مالكة، والمكثر من إكثاره، والمقل من إقلاله،
ولن يحاط بوصف أحزائها وأوجاع غموم سكانها^(١).

وقال **الكَلْبِيَّة**: فكم بالدنيا من غريق في لجج البحار، وكم فيها ولها من مبتلى
بقتل أو أسار، وكم لطالبها، وإفراطه في حبها من ميت غريب ناء عن الولد
والأوطان، بين غتم^(٢) لا يعرفونه، وطماطم^(٣) من السودان ينكرونه، لم يبكه هناك
ولده ولا أقاربه، ولم تأسف عليه كما أسف عليها دنياه، بل تخلوا جميعا منه،
وأعرضوا سريعا عنه، فورثوه غير حامدين له فيما جمع، وأسلموه إذ مات لما عمل
وصنع، ولعل قائلا منهم أن يقول: ما كان أفحش حرصه وإيعاثه^(٤)! أو قائلا
منهم يقول: ما أقل أو ما أكثر تراثه! تلعبا بذكره، وتفكها في أمره؛ فاعرضوا هذا
رحمكم الله على قلوبكم؛ لأن ينجلي لكم إن شاء الله ما فيها عن الدنيا من العمى،
وانظروا إلى من زالت عنه القدرة من أبناء الملوك والعظماء، كيف صاروا إلى

(١) انظر مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم ٢/٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٢) في (أ): عتم . الأغمتم: البليد . ينظر مختار الصحاح ص ٤٦٩ .

(٣) الطماطم: جمع طِمْطِم وهو الذي في لسانه عجمة .

(٤) بمعنى الحبس والصراف . القاموس ٢٢٧ .

الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية . تأليف: شيخ الإسلام : الشهيد حميد بن أحمد بن محمد المحلي .
تحقيق: د. المرتضى بن زيد المَحْطُوري الحَسَنِي . الطبعة الثانية - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م - مكتبة مركز بدر للطباعة والنشر والتوزيع .
www.almahatwary.org

الضعة بعد الرفعة، والضيق بعد مضطربهم من السعة، بل انظروا بعد هذا كله إلى من كان هذا أكثر^(١) شغله، ألم تروا غلطهم في مسالكهم، ومرتطمهم في مهالكهم، واعتبروا بهم قبل أن تغرقوا في بحرهم، وتقعوا في مهالك أمرهم، وآثروا سبيل أحياء الله على كل سبيل، (واستدلوا بما كان لهم على سبيلهم)^(٢) من دليل؛ فإن دليلهم فيه وعونهم عليه ما خالط فكرهم، وأحيوا به في الفكر ذكرهم من نعيم الآخرة الدائم المقيم، وما أعد الله لمن حاده في الآخرة من العذاب الأليم^(٣) .
وكلامه عليه السلام كثير في هذا المعنى، وهو يخرج من قلب خاشع، وجنان خاضع .

(١) في (أ): أكبر .

(٢) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(٣) انظر مجموع كتب رسائل الإمام القاسم ٣٤٩/٢ .